شذى النبيع

قصة الشهيد علي زعرور

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

شَذى النَّجيع

قصة الشهيد

علي أحمد زعرور

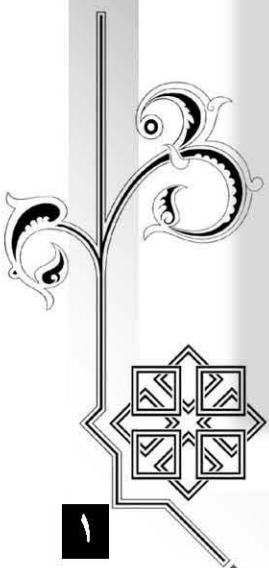

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

- **القصة:** شَذى النَّجيع.
- **الكاتب:** الاستاذ حسن زعرور.

نالت القصة جائزة الوحدة الثقافية لحزب اللّه ـ بيروت.

- **الناشر:** جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة:** الاولى ـ ٢٠٠١م.

بطاقة هوية

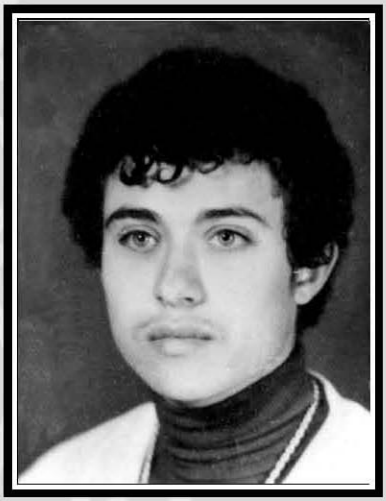

الاسم والشهرة: علي زعرور.

اســـــم الأب: أحمد.

اســـــم الأم: بسيطة حلال.

مـــواليـــد: الشرقية ١٩٦٣/١٢/٢.

تـــاريخ الاستشهاد: ١٩٨٧/٤/١٨م.

مكـــان الإستشهاد: موقع علمان.

مكان دفنـــــه: الشرقية - الجنوب اللبناني.

بسم الله الرحمن الرحيم

كان الفجر لا يزال بعيداً، عندما نهضت «أم علي» من فراشها، وقد أعياها الأرق وكثرة التقلب، ذات اليمين وذات الشمال، دون أن يغمض لها جفن.

وتساءلت هل أن ما تشعر به وهم، وُجِد من كثرة تفكيرها وانشغال بالها ونداء الحنين الظامىء فيها للخلفة، أم أن هناك شيئاً آخر هذه المرَّة، شيئاً تحسه ولا تدرك في قرارة نفسها الولهى، إن كان ذلك شك أم يقين.

وفكرت، أيعقل ذلك، وهي من سنين، لم تنثنِ تنذر النذر تلو النذر، تتصدَّق بما استطاعت، توزع الملح على الجيران أيام الجمعات، طالبة، مترجّية ممن حولها، أن يدعوا لها الله سبحانه كي يرزقها ولداً.

سنوات مرَّت، لم تترك أم علي خلالها طبيباً قيل لها عنه إلاَّ وزارته، مرتجية الخير على يده، تدفعها اللهفة والتمني، ويحدوها الأمل والرجاء، ويبلغ بها الشقاء، حين ترى ذلك المخلوق الطيب القلب زوجها، وكيف أنها لم تستطع إنجاب ذرّية له، وكيف أنه سلم أمره لله بخضوع.

لم تسمعه مرَّة يبدي إعتراضاً، ولا شكوى، ولا تذمّر مما هما فيه، واستمر رغم سني زواجهما الطويل، يخفي حقيقة مشاعره في حنايا قلبه، صابراً محتسباً، يظهر لها وجه البشاشة في غدوه ورواحه، دون تملّق منه أو رياء، وقد كان في قرارة نفسه قويّ الايمان بالله (جلَّ جلاله).

وقفت على العتبة أمام البيت، وحولها ظلام الليل على حاله، أدارت وجهها نحو المشرق، حيث التقاء الأفق بالسماء، ونادت بصوتٍ منكسر هامش «آه يا

سيدتنا زينب عليها السلام، يا كريمة عند الله، حققي لي ما ببالي، والنذر نذرك».

دخلت الى المنزل تتوضأ، ثم راحت تصلي، ركعتي الشكر وركعتين قربى للّه، عمدت بعدها الى «السبحة» تتمتم بها الصلوات المباركات بانتظار الفجر، إلاَّ أن النعاس غلب عليها فنامت على المصلاة.

أيقظتها حركة أبو علي، مع أنه لم يكن يرغب بأن يوقظها، لعلمه بما هي فيه من هواجسها الليلية، إلاَّ أن قرع الملعقة تذيب السكر في كوب الشاي أيقظتها، فقامت من مجلسها بعجالة كي تخبره.

أبو علي، أريد الذهاب الى «الحكيم» اليوم.

سألها: خير؟

قالت: لست أدري، أشعر إنني غير طبيعية، إنحطاط في جسمي و«لعيان» نفس، وبالأمس تقيَّأتُ ما في جوفي.

وافق على ذهابها، بطبيعة من اعتاد الأمر، أكمل فطوره، ثم خرج مودعاً الى عمله.

حين أبلغها الطبيب أنها «حامل» سرى الخدر في جسدها، وطغى على مداركها طنين غيَّب من ذهنها ألف سؤال وسؤال، واضطرمت داخلها البشرى بأحاسيس شتى، وانفعالات متغيرة بين الضحك والبكاء، أحسَّت كأن في صدرها سيل يوشك أن يخرج من انحباسه جذلاً، خرجت الى الطريق تتطلع في أوجه الناس، ولولا بقية حياء لأوقفت من استطاعت لتخبره أن رحمة الله أتت بعد سنين، لك الحمد يا أكرم الأكرمين، رددتها أم علي مراراً، وعادت الى البيت تداعب نجواها.

مرَّت أيام الحمل، بطيئة ثقيلة كأن الزمن وقف بها، لم تعرف أم علي أياماً أبطأ منها من قبل، وما كان يخفف من وقعها إلاَّ مشاعر الودّ تبديه للجنين

القابع في رحمها، راحت تناغيه كأنها تراه، تحسّ حركته فتضطرب، ويتقلب في مكانه فتخفق روحها معه، وحين يرفس تضع يدها على موضع الرفسة كأنها تلامسه وتقرقر جذلى، حتى جاء أمر الله، وحانت ساعة الولادة «صبي اللهم صلّ على النبي» صرخت القابلة.

وجاء الى الدنيا «علي»، فتبسَّم أبو علي وأشرق وجهه، حمل الطفل بين ذراعيه، أدنى فمه من أذنه، ثم راح يؤذن فيها بصوت حنون خافت، ثم كبَّر ثلاثاً وأتبعها بسورتي الفاتحة والإخلاص تيمّناً، وما لبث أن شرق بدمعه، حين تذكَّر والده الشيخ موسى منذ أشهر، وبقلبه حسرة لأنه لم يرَ لأبي علي ولداً.

أعاد الطفل إلى أمه، وراح يردد «أمر الله لا مردَّ لأمره سبحانه» ثم خرج الى باحة المنزل يستقبل الوافدين للتهنئة من الأقارب والجيران، أخذ يوزع

«الملبّس على قضامي» على الأولاد كعادة الناس في تلك الأيام، وبدت فرحته أكبر منه فجلس بين الجميع بشوش الوجه بادي الحبور.

ومرَّت سنة، إزداد حُسْنُ علي، وكانت خصلات شعره الذهبية تنسدل متموّجة بين عينيه الزرقاوين، وتنحدر الى ما خلف رقبته كأنها تذكّر أمه بضرورة الوفاء بنذرها «وقص شعر علي في مقام السيدة زينب عليها السلام».

وجاء يوم، قررت أم علي فيه، أن تذهب الى بلدة الشرقية في جنوب لبنان، ومعها ولدها لإعداد مؤونة الشتاء، على أن يبقى أبو علي في بيروت بسبب ظروف عمله، وأقلَّها قريب لزوجها في سيارته.

عندما وصلت السيارة التي يستقلونها الى صيدا، فوجىء سائقها بسيارة أخرى تعبر أمامه الطريق بشكل عرضي، ودفعه خوفه من الاصطدام بها إلى

الانحراف فاصطدم بعمود الكهرباء، وانهار الزجاج الأمامي على علي وأمه والسائق.

لم تدرِ أم علي أنها أصيبت، فقد شلَّها الرعب حين شاهدت ولدها والدماء تسيل من وجهه ويديه وأنحاء جسمه، من جرَّاء شظايا الزجاج المنغرز فيها، أخذت تولول وقد قاربت الجنون، ولم تدرِ كيف استقلَّت إحدى السيارات التي توقفت للمساعدة حيث أقلَّتها مع طفلها الى المستشفى، وهناك وسط الصراخ واللطم، ثم تضميد جراحها الطفيفة وجراح علي، والذي نجا بأعجوبة من الحادث إلاَّ من جرحين كبيرين غائرين، أحدهما في خدّه وترك فيه ندباً لازمه طوال عمره، والآخر في بطنه برىء مع الوقت.

ومرَّت الأيام، ذهب علي الى المدرسة، وكبرت عائلة أم علي، رزقها الله موسى وإيمان وفاطمة

وحسين وأيمن، غير أن علي بقي مبعث الحنان المتفجّر في عيني أمه وعين أبيه، لم يهنأ لهما في تربيته بال، وعانيا معه أياماً وليالٍ طوال، بالكاد لم يزر فيها طبيباً، لِما عاناه من عِلل وأمراض، ما دفع أم علي لجعل فراشها لصق فراشه، وصنعت له «مخدة» خاصة به، وضعت عليها عدة أغطية، لأن فتحتي أنفه كانتا تسيلان دماً أثناء نومه، ولا يحسّ بهما، حتى تنجبل مخدته بالدماء، وتجلس أم علي قربه باكية تمسح خديه «بالكولونيا» مرة وبالسبيرتو مرة أخرى.

لم يستطع الأطباء تعليل حالته، وتكاثرت نظرياتهم وكذلك طرق العلاج، إلى أن ارتأى أحدهم أن يلجأ لعملية كيّ في شرايين الأنف، وعلى مدى أسابيع خضع علي لعمليات كيّ في فتحتي أنفه بصبرٍ وقنوط، دون أن يتحسن وضعه.

وبات علي مورّد الخدين يوماً، اصفر الوجه، زائغ النظرات حزينها أياماً، لكثرة ما كان ينزف من دماء، وحدها بسمته بقيت سمة، تميّز طلته، ومضى به العمر.

أبلغ والدته يوماً أنه يشعر بألم في معدته، حسبته الوالدة برداً، سقته «ماء وسكر» وضعت له «زنّاراً» يلف به معدته خلال نومه، ودثّرته بغطاء ثقيل، ثم تمددت قربه صاحية العين، يُثقل عليها النعاس بأنفاسه فتكبو ويهزها القلق على وليدها فتصحو خائفة عليه، واستمر على هذه الحال ليالٍ عدة، لم ينفع فيها دواء طبيب الحي الهرم، ولا أكواب «الزهورات» يحتسيها علي كل ليلة، حتى كانت إحداها حيث فقد علي فيها قدرته على التحمل، وفقدت أم علي صبرها، فحملت ولدها الى المستشفى، وهناك، وبعد إجراء اللازم من الفحوصات والصور، تبيّن أن

علي يحتاج إلى عملية جراحية عاجلة، بسبب وجود «ورم» غير محدد في معدته.

رغم محاولتها إظهار الهدوء، فإن النار كانت تأكل أحشاء أم علي، وأوشكت على الانهيار أكثر من مرة، بعد أن أجهدها القلق وسهر الليالي، وأضناها عذابها النفسي وخشيتها من فقد ولدها، فانزوت تبكي بخفوت، وترفع عينيها الى السماء بين لحظة وأخرى لتدعو: «إلهي، حرمتني منه سنوات، فأبقه لي، بحق حبيبَيْك الحسن والحسين عليهما السلام».

استغرقت الجراحة وقتاً، وإذا بالطبيب المشرف على العملية سارعت أم عليه اليه وأبو علي خلفها يتلو سور القرآن، واستوضحاه عن حال إبنهما، فأبلغهما أنه تم «استئصال كيس من معدة علي» وحاله جيدة ولا تدعو للقلق الآن، وأوضح الطبيب أنه لا يملك معطيات حتى الآن تبين سبب وجود كيس

في معدة طفل عمره عشر سنوات ولذا فإنه لجأ إلى عملية زرع لأجزاء من الجسم المقتطع لمعرفة السبب.

بعدها بأيام، خرج علي من المستشفى وسار في ركب الحياة ليبلغ الرابعة عشر من عمره، رفيقه نزيف يغيب ويعود، وسميره ألم في معدته استوجب إجراء جراحة ثانية وثالثة له، حتى غدا صدره يحمل ندوباً بالطول وبالعرض من أثر العمليات الجراحية، إنعكس مرض علي على علاقاته الاجتماعية وحدَّ من تطلعاته، وأسهم خوف والدته عليه قيوداً خففت من اختلاطه مع أترابه في السن وفي المحيط، مخافة أن يُصاب فتنكأ جروحه، وبات يعيش وحدته في عالم خاصّ به لم يكلمه أحد، حتى غدا قليل الكلام، ضعيف التجربة، كثير الحياء يعتريه الخجل عند لقائه بالآخرين ويقصيه صمته عن التجاوب مع أفراح الناس وأحزانهم.

وجاء الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، ليغيّر حياة علي كما غيَّر حياة الكثيرين، ونتيجة لحصار بيروت، فقد غادرها علي مع أهله الى القرية في جنوب لبنان، وهناك تفتحت أمام ناظريه الحياة كما لم يعهدها، لفته القرية بوداعتها وهدوئها بين الأحضان، وبعثت فيه الألق حتى بدا كأنه وُلد فيها من جديد، ووجد متنفّسه الذي كان يصبو إليه.

غدا علي شاباً طويل القامة، معتدل الجسم، تقاطيع وجهه الحلوة وحيويته ودفق ابتسامته قرَّباه من الآخرين، الذين أحبوا فيه عفته وخجله البادين في إنحناءة رأسه عند النظر الى النساء، وجذبتهم إليه شعلة ذكاء متوقد في عينيه يخالطها سرعة بديهة وحلاوة معشر، وابتعاد عن السفيه من الكلام، وكلها، حوافز عمَّقت صداقاته ومتَّنتها، كما أن

الحرمان خلق لديه رهافة الحسّ ونبلها، فكانت معاناة الآخرين وآلامهم تثير فيه كوامنه وتشعره بمدى ما كان يحتاجه أبان مرضه من مواساة، فلم يتوانَ عن إشعار الآخرين بحبه وموقفه الطيب معهم، ثم أن ليالي عذاباته الطويلة وأمسيات وحدته قرَّبتاه من محبة الله سبحانه، فبات يعيش في عمق ذاتيته التي اختزنها طويلاً، هاجس التعبّد ويلتمس الوسيلة لمرضاة الله، جلَّ في عمله وفكره، فغدت تصرفاته هادئة سلسلة مع أنه إبان مرضه كان يثور لأتفه الأسباب، غير أن للإيمان حلاوة يعرف مذاقها من يغترف منها يومه وليله في مناجاة ربه، هكذا بات علي يعيش في تصوره سموّ الهدف الذي تصغر عنده الأشياء وإن كبرت.

صار الفجر يستيقظ مع علي، يراه قائماً للصلاة في مسجد القرية، منتظراً شروق الشمس بتلاوة

القرآن، ومغلقاً باب الليل على التهجد والعبادة، يسعى نهاره مع رفاقه يدرسون واقع الاحتلال ومرارته وما يجدر بهم فعله.

وقد كان من نتائج الاحتلال ومجازره، توقّد جذوة الرفض لوجوده، ولما يحاول فرضه على واقع الجنوبيين، الذين طوّروا سُبل مواجهته وصعَّدوها تدريجياً، وقام بشرف المواجهة تلك فتية ممن آمنوا بربهم حقاً، مالوا الى الشيخ راغب حرب، يتلمسون على يديه الهداية والسبيل، ويلتفون حوله في جبشيت بعطش الظامىء للحق، ويرتوون من منهل تقواه عزيمة ومضاء، وإذ يزور الشرقية يسعون بين يديه، وما كان أكثر ما يزور الشيخ بلدة الشرقية بيتاً بيتاً، تتلمس يمناه رؤوس صغارها حنواً وعطفاً وتحتضن يسراه أكتاف كهولها مشاركة ومواساة وتحرك دعواه وعزيمته شبابها نحو رفض مذلَّة الخضوع للغاصب، ومن مَعِين

إيمانه ينير الحنين تقرباً إلى الله، ويطوف أدب خلقه وسماحة معشره منهجاً سوياً لأتباعه صراطاً وسبيلاً، فكان الكثير منهم لظلّه أدنى، ولرأيه أولى ولسعيه قرين، وكان علي معهم ومنهم.

ما كان أحد ليتصور، أن ذاك الفتى الخجول، المنطوي على نفسه ردحاً طويلاً والذي قضى عمره منزوياً عن التفاعل مع الناس، يخفي بين جوانحه كل هذا الاندفاع والتفاني لنصرة الدين، وما كان ليخطر ببال أحد، أن شاباً لا يملك من الخبرة إلاَّ اجترار الألم وارتشاف اليأس، يجعل من ضعفه قوة يستمدها من إيمانه بالله لتحقيق ما يصبو اليه ويسعى، حتى وصل إلى قمة العطاء في حسن التخطيط والتنفيذ للعمليات العسكرية ضد مواقع العدو الاسرائيلي، وما تطلبه ذلك من دقة ودراية وإقدام يعجز عنه ضعاف النفوس.

لقد تمكّن علي وبذكاء من حفظ سرّ إنتمائه للعمل المقاوم حتى عن أقرب المقربين اليه ولفترة طويلة، لم يبدر منه خلالها حماسة أو تبجح أو إيماءة تكشف سرّه، وهو تعمَّد في مناسبات كثيرة الايحاء للآخرين عبر إظهار نفسه وشخصيته بمظهر الانسان اللاهي وأقدم لأكثر من مرة لإظهار ذلك، على تنظيم رحلات صيد ليلية للثعالب مع أولاد عمومته وبعض الرفاق، وما كانوا يدرون وهم معه، أن بعمله هذا يحاول تنمية حوافز الادراك والمعرفة والترقّب والتوثّب في قدرات حواسه التي راح يصقلها ويبلورها في تحركاته تلك، وكم عاد وبيده جثة ثعلب أو اثنين يروي حول صيده لهما نوادر وحكايا.

وجاء يوم، اقتضت ظروف مواجهة العدو، أن يعود بعض المقاومين الى بيروت، وكان علي في عدادهم!

لم تكن علاقة أم علي بولدها علاقة عادية،

محدَّدة ومحدودة الصلة، فسنين عقمها قبله تركت في روحها جراحات، جاء علي ليبلسمها بوجوده، ويملأ قلبه الفارغ المتعطش للحنان بابتسامته، وليضيء ليالي وحدتها بأنس محياه، فكان تعلقها به أكبر من الوصف، وأعمق من أن يُقاس، حتى غدت وبإحساس نادرٍ نمى في داخلها إبان ملازمتها له في مرضه الطويل، تشعر بأدنى حسّ يلوح في وجهه أو تظهره عيناه، من مشاعر أو غايات أو قصد، وعليه، وقد عاد من الجنوب فإنها أحسَّت بما حدث لإبنها من تغيير.

أضحت رجولته أكثر غموضاً وعمقاً، ورأته مرَّات يغرق في تفكير بعيد، يلفّه الصمت والسهوم البادي في عينيه، ويكثر الانفراد بنفسه.

اعتقدت بادىء الأمر أن ابنها عاشق، فمسَّ ذلك مكامن الودّ في فؤادها وأطربها، أخذت تحاول

إستدراجه بالحديث فتهرب من الإجابة، ضيَّقت عليه بالسؤال بما فيها من تصميم وعناد، ولكنها لم تظفر منه بإجابة تريح بالها، وكان حين تعييه بأسئلتها يلجأ إلى مداعبتها محاولاً تغيير مسار الحديث والأسئلة، وقد يصل معها الى حدود دغدغتها ليقلب الأجواء ثم يتركها في وحدتها بين الشك واليقين دامعة العين.

وقررت أن تعرف الحقيقة، فراحت تبحث عنها بصبر وأناة ولفترة طويلة، فتجمع لديها من المعارف والأهل والأصدقاء، نتفاً، أمكنتها من تكوين صورة قريبة الى الحقيقة والواقع، عمَّا يقوم به ولدها، وقد رأت أن رفاقه متدينون ملتزمون يخشون الله في السرّ والعلن فعلمت عندها أن فؤاد ولدها مع هؤلاء.

لم يجدِها النقاش مع «أبي علي» حول الموضوع،

ولم تسعفها قدرتها على إظهار خوفها وتبريراتها أمامه بشيء، فاتهمته أنه لا يقف من علي موقف الوالد الحازم، فهو لم يعاقبه ولو لمرة، ولم يفرض عليه أمراً أو يمنعه عنه، ولم يمدد عليه يداً في خلال سني عمره، ولم يوبخه أو يؤنّبه أو حتى يزجره على عمل ما، وبقي زوجها على هدوئه طيلة كلامها ثم قال لها بصوته الوادع: «دعيه، فهو يعرف ما يفعل».

واستمرت أم علي في تلمّس مخارج، ودلائل ووسائل تعينها في ردّ علي اليها، وتبعده عن رفاقه ومعشره ذاك، واعتقدت أنها إن ساعدته بالحصول على «وظيفة في الدولة» فإنه مع الوقت ينسى ويبتعد عن أولئك الرفاق، وراحت تتودد للكثيرين من ذوي النفوذ ومن أقربائهم ومعارفهم والمتصلين بهم علَّهم يساعدونها في فكرتها تلك.

حار علي في ما يتوجب عليه فعله، كان يخشى

انكشاف سرّه في حال رفضه وإصرار والدته، وكان يخاف أن يسيء الى انسانة عانت لأجله الكثير، وعليه لم يجد بداً من مسايرتها حتى يأتي الله بأمره، فتقدَّم لأكثر من وظيفة، رفضها جميعها، عندها حسم معها النقاش بشكل نهائي.

وسمعت أم علي أن ولدها ورفاقه يجتمعون في أحد المنازل ضمن منطقة الشياح، سعت إلى العم الأصغر لعلي، وكانت تعلم عمق الودّ بين إبنها وعمه ذاك، وطلبت من العم بحق رحم الأم أن يتحدث مع إبنها علَّه يقتنع منه ويغيّر نمط حياته ومعشره، ورغم حراجة المطلب فإن العم طيَّب خاطرها ووعدها خيراً.

غادر العمّ إلى مكان الاجتماع تتآكله الحيرة، فالموقف المطلوب منه صعب، والأصعب منه مواجهة علي، ويعلم العم عظمة ما يقوم به إبن أخيه، وحين

لم يجد مخرجاً مما هو فيه فإن العم قرَّر متابعة مهمته.

عندما وصل الى مكان الاجتماع، طرق باب المنزل، ففتح له شيخ وقور، تلقَّاه بالابتسام ودعاه الى الدخول لمعرفة بينهما سابقة، غمغم العم بالاعتذار المسحوق راجياً رؤية علي، وكان أن ناداه الشيخ فأقبل.

عندما جاء علي بدت على وجهه إمارات الدهشة سرعان ما أزالها بعبوس، سلَّم عل عمه وعيناه تستوضحان سبب الزيارة، وإذ خيَّم صمت ثقيل لبرهة فإن العم سارع إلى تمالك نفسه وقال بكلمات خرجت وكأنها إعتذار: «بني، أتؤمن بما تقوم به»، ردَّ علي بوجه خالٍ من التعابير «كل الايمان»، فقال العم: «ومستعدٌ أنت للنتائج مهما كانت».

إنفرجت أسارير علي عن ابتسامة حلوة وقال: «لا

عليك يا عم، أنا في شوق لذلك» وفهم العمّ المعنى، وبغصَّة المبحوح قال: «ليكن الله معك»، عندها ولمرة واحدة فقط ضعف علي أمام عمّه، واقترب منه ليضمه فعانقه العم وقبَّله مراراً.

لم يشفِ العم غليل أم علي كما توقعت وأرادت، ولم يوضح لها الصورة في بالها، غير أن علي فعلَ ذلك، وكالطبيب يستعمل الكي لشفاء مريضه، واجه علي أمه بموضوعية وحسم ودون جدال حول النهج الذي اختاره لحياته.

وكان أن همدت أم علي لأيام، لا تزور ولا تُزار، ويغلب عليها السهوم والمعاناة، غير أن موقف علي فعل فعله، وراحت أم علي تسترجع ماضيات أيامها ومعاناتها ووحدتها ووحشتها ولجوئها الى الله سبحانه لتخفيف تلك المعاناة والوحشة.

وفي محاسبتها لذاتها تذكَّرت أم علي لياليها

الطوال تناشد ربها العون، تستغفره وتدعوه، تسجد، تتضرع، تتعبد، تترجى، ما كان أقربها الى الله في تلك الأيام، وما كان أسرعها بالتوسل والدعاء لديه لقضاء حوائجها، وتنبَّهت كيف كانت تتقرب من الله في طلب ما تحبّ وترضى، وكيف تبتعد الآن في ما يحبُّ ويرضى، فما نفع صلاتها وصيامها وعبادتها إن لم تكن كلها الوسيلة الى الله (سبحانه)، وفهمت أم علي أن إبنها يختصر الوسيلة والطريق إلى الله (سبحانه) فهدأت نفسها وقرّت عيناً!

«أماه، أريد أن أتزوج» ضحكت أم علي وقالت بمزاح: «اللي متلك بيتزوج!»، تبسَّم علي لها وقال: «لِما لا» وتابع: «حضري حالك غداً أنت ووالدي».

حين رأت أم علي إمارات الجد على وجه إبنها، تحفَّزت مشاعرها، واستيقظت من سباتها، وعندما أكَّد لها الحقيقة، قامت من مجلسها لا تسعها

الفـرحـة، وراحت تمطره بالأسـئلة عن اسم فتاته وابنة من هي ومن أي بلد، وهدَّأ علي من حماسها وأبلغها أنها فتاة ملتزمة دينياً وأن حديثاً أولياً بينه وبين الفتاة وأهلها قد جرى بموضوع الزواج بانتظار موافقة أم علي وأبي علي.

قرقرت أم علي فرحة وهي تبلغ زوجها عن الخبر حتى قبل أن يقلع ثياب عمله، وانتقلت عدواها إليه فتبسَّم وأظهر رضاه وقال: «على بركة الله».

وفي اليوم الثاني، إلتقت أم علي بالعروس «منهل»، طفولية وجهها مست شغاف قلب أم علي، وبراءة نظرة الفتاة أسرّت لبّها وجعلتها تهنىء ولدها على حسن اختياره، وحين أقبلت نحوها حيية الخطوات احتضنتها أم علي بحنان أخجل الفتاة وأربكها، واعترفت أم علي في قرارة نفسها أن «منهل» شديدة الشبه بولدها علي إلى حد كبير في الخُلُق والتكوين.

غلب على لقاء العائلتين الطيبة والتحبب، وقرّب بينهما أدبهما الديني وخلقهما المتعالي عن المفاهيم الدنيوية، وهكذا تم الاتفاق على المهر، مقدمه مصحف شريف ومؤخره رمزٌ مالي لأقرب الأجلين، ودار الحديث بعد ذلك في مذاهبه، فأعربت أم علي عن رغبتها أن يقام لإبنها عرس باهر، وراحت تتفنن في وصفه حتى المغالات حينها أوقفها علي وقال: «أماه أريده عرساً بسيطاً».

يوم العرس، في منزل الوالد، المكون من غرفتين في قرية الشرقية جرى الزفاف، لا طبل ولا زمر، على السرير الوحيد في الغرفة جلس أربعة من رفاق علي وتربَّع الباقون على الأرض، عشرون شاباً هم رفاقه في المقاومة الاسلامية وحدهم كانوا المدعوّين، ما كان لفرحته أن تكتمل إلاَّ بهم، وما كان لسعادته أن تتم في تلك الليلة إلاَّ بوجودهم، وباختيارهم لعرسه أظهر

بمن يثق وبمن يهوى وبمن يحب، أشقاء روحه هم وشقيق الروح أكثر قربى من الجميع.

وباستثناء والدة علي والعروس «منهل» فقد كان العم الأصغر الحاضر الأوحد من الأهل والأقارب، والذي راح على ضوء الشموع، يوزع الحلوى وأكواب الشاي على الرفاق، كان التيار الكهربائي مقطوعاً، فحظي ذلك بالنصيب الأكبر من المزاج البريء عن ليلة العرس دون كهرباء، وراحت ضحكات حلوة بين الجميع توشوش آذان الليل حتى انتشى بفرحة الموجودين، وقف العم ينقل نظره المغشى بدموع المحبة بينهم، متعجباً من بساطة أسود الليل هؤلاء، يفترشون الأرض كأنهم أضعف خلق الله وهم أشد خلقه ذوداً عن دينه، أعاد العم دورة الشاي من جديد، وإذ خشي انفلات عاطفته بينهم اختار له مكاناً ينزوي فيه ويسعد بهم!

عشرون يوماً مضت على ذلك العرس، ودَّع علي زوجته بدعابة، وخرج مع رفاق الأمس في عُرسه، إلى موقع «الشومرية» في نية لاقتحامه، وهناك وباختراق قوي تمكن المجاهدون من الوصول الى داخل الموقع والدشم، حيث سقط الجميع قتلى في تلك العملية، ولم يعد علي، ولا رفاقه، ولم تكن منهل حاملاً!

تحقق ما كان قلب أم علي يخشاه، وحين نُقل الخبر اليها عن استشهاد ولدها، باتت جسداً بلا روح، افترشت الأرض، وراحت تهتز متمايلة يمنة ويسرة، تئن وتتنهد دون كلام، وأخذت تصفع ركبتيها وهي تحتلب ريقها الجاف، لكأنما لم يعد في مآقيها دموع، وبدل البكاء راحت تتنهد بآهٍ طويلة تصدع نياط القلب فأبكت من حولها، حتى خشي الجميع أن يكون الخبر قد ذهب بعقلها، إلاَّ أنها ما لبثت وقد

فاض بها الحزن وطول الأنين أن صرخت بصوت طويل متواصل من عميق صدرها «يا علي» وغشي عليها.

حين أفاقت وعلمت أنه لم يتم احضار جثة إبنها، راودها أمل وآه، راحت في قرارة نفسها تذكّي جمراته، حتى استوى في ذهنها «بأن لا جثة يعني أن علي قد يكون حياً» وإذ لمعت الفكرة في رأسها فإنها استمدت منها قوة وأخذت تمنّي النفس بها.

على الرغم مما أكدته قيادة المقاومة حول استشهاد علي، ومع مرور الوقت بدأت أم علي تستقصي الأخبار وتعود الى زوجها مساءً كي تبلّغه «في معتقل الخيام شخص يشبه علي» و«في مستشفى مرجعيون جريح كأنه علي» و«في عتليت أسير تنطبق عليه مواصفات علي» واستمرت على ذلك تسع سنوات كاملة.

وبعد سنين، استطاعت المقاومة الاسلامية أن تحرر عدداً من أسراها وجثث بعض شهدائها ممن كانوا في يد العدو، وكان بين من استعيدوا جثث شهداء عملية الشومرية التي مضى عليها تسع سنوات.

كان من الصعوبة معرفة هوية كل جثة وصاحبها، لأن العدو لم يكن يملك مقومات تساعده على معرفة أسماء أصحاب تلك الجثث التي تسقط شهيدة في العمليات، ولذا عمد الى وضع اسم العملية على جثث المستشهدين فيها، وكان على الأهل معرفة هوية الجثث التي استُعيدت.

رفض العم الأصغر، ذهاب أم علي وزوجها، للتعرف على جثة إبنهما في المكان الذي وضع فيه الشهداء، وفضّل أن يذهب وشقيق الشهيد موسى للقيام بتلك المهمة، أياً تكن المرارة والأسى الناتجين عن ذلك في فؤاده.

ثلاثة عشر نعشاً من شهداء عملية الشومرية وضعت بالتتالي على طاولة خشبية مستطيلة، والتفَّ حولها العديد من الأهل والمسعفين المولجين بفتح النعوش، وارتأى المشرف على العملية، أن يتم فتح النعوش واحداً وراء الآخر كي يتاح للأهل المعرفة والتأكد، وتم البدء بالنعش الأول.

لم يكن بالنعش ما يدلّ على صاحبه، وكان فيه مجرّد بقايا من ثياب ورمل وعظام بلغ منها التآكل مبلغه، وراح المشرف تخنقه الغصة يعطي دلالات من داخل النعش ولولا حوافز الايمان لديه لما استطاع اكمال مهمته، فوق طاقة الحسّ البشري فيه.

لم يتم التعرف الى صاحب الجثة في النعش الأول، وأُحيلت إلى طبيب تم استدعاءه علَّه يستطيع من خلال خبرته اعطاء مواصفات ودلائل تعين وتدل.

في النعش الثاني، كان الأمر نفسه، وراح المشرف

ينتزع نتفاً من ثياب ضاع لونها ونوعها حتى وجد بين البقايا نعل حذاء رياضي من ماركة أديداس حين رفعها المشرف أجهش رجل كبير السن بين الواقفين حول النعش بالبكاء فقد كانت الجثة لابنه الشهيد .

واستمر فتح النعوش بالوتيرة نفسها والسياق ذاته، والقليل من أصحابها عُرفت هويته من بقايا ثيابه أو ما شابه في الاستدلال عليه، والكثير من جثث النعوش لم يتم التعرف على أصحابها لتحلل البقايا منها، وعند فتح كل نعش كان موسى يتطلع الى عمه مومياً برأسه أن ليس هو، حتى كان النعش الأخير

عندما فتح النعش تحلَّق الجميع حوله، وبان فيه غطاء نايلون جديد ربط طرفاه عند الرأس وعند القدمين، تقدم الأخ حجازي وراح وبمقص في يده يشق النايلون طولاً، في البدء ظهر حرام صوفي لونه

بني باهت وممزق، تلقفته الأيدي نتفاً نظراً لتقادم العهد به، وظهر تحته نتف أخرى من غطاء نايلون قديم متكسر ومفتت، عندما أزاح العم بقايا الحرام جانباً بيده، بدت ثياب علي بشكل واضح وجلي. جاكيت جلد كان والده قد اشتراها له ليلة عرسه، وظهرت مفتوحة حتى منتصف صدره، وخلفها قميصه الرقيق المقلَّم بألوانه الصفراء والخضراء والزرقاء، أقلام طويلة لم يتغير لونها وإن بهت قليلاً، شعره الأشقر كان الى لون القمح أقرب، بنطلونه، حذاءه قياس ٤٤، يداه كانتا متصلتين اليمين فوق اليسار وقد وضعهما على سرته كما النائم على ظهره، أدخل الأخ حجازي مجمع كفّه تحت فخذ الشهيد الأيمن، وضغط عليه، ثم نظر الى العم مدهوشاً «اللحم طري» قال حجازي، ومدّ العم يده، يجس ظاهر كف الشهيد اليمنى دون أن يحركها من

مكانها، أحس بملمسها الناشف إلاَّ أنها انحنت تحت ضغط يده قليلاً، ثم عمد العم إلى تفتيش جيب ثياب الشهيد علَّه يجد شيئاً، فيما كان موسى يتأكد من نوع ورقم حذاء الشهيد، ولم يجد العم في الجيب أي شيء، إلاَّ أنه لاحظ انها لا تزال على متانتها، عندها استعار المقصّ من حجازي وقصص من القميص قطعة، ومن الجاكيت قطعة ومن البنطلون أيضاً، وخصلة شعر قصها من الجبهة الأمامية للشهيد، وبعد ذلك أقفل النعش وكتب عليه «الشهيد علي زعرور»!

لم تكن مهمَّة العمّ وموسى قد انتهت بعد، فهناك في المنزل كائنان ينتظران بمزيج من اللهفة والترقّب والألم، والجرح الذي اندمل منذ تسع سنوات أُعيد فتحه ولم يعد ينفع فيه الصبر.

وفي السيارة، حمل العمّ براحتيه ما قصَّه من ثياب

علي، وتولى الشقيق موسى القيادة، لفّهما الصمت لحظات، وكلاهما غارق في أفكاره الخاصة، وتندت من أعينهما الدموع بانسياب تلقائي دون نشيج أو بكاء، ثم تساءل العم بصوت مسموع كأنه يحدّث نفسه عن سبب بقاء الجثة على ما هي عليه؟!

لم يكن موسى يملك الإجابة، وردَّ على السؤال بسؤال: «أيعقل يا عماه أن يكون تم تحنيط الجثة، فأنا أسمع بأن الإسرائيليين يستعملون أبر التحنيط، ولم يكن العم يملك الجواب، غير انه استمر في لجاجة السؤال يحدث نفسه: «إن كان قد حفظ فلماذا حنّط وحده بين الآخرين؟» لم يكن في النعوش الأخرى إلاَّ بقايا ولماذا بقي هو بشكله الكامل، هزَّ العم رأسه حائراً وتابع: «إن كان قد حنّط فما بال ثيابه بقيت على حالها؟ احتجنا للمقص كي نقتطع

منهـا، وأن مـا يقـال عن أن النعش فُـرّغ من الهـواء فكيف ذاب الحرام الصوفي الملفوفة به الجثة وبقيت الثياب مع أنها متصلة بالحرام وملاصقة له، ثم لماذا ولماذا هو وحده بين ثلاثة عشـر نعشاً، إن كـان حُنّط فالأولى والأجدر والأقرب للعقل أن يحنَّط البـاقون، وإن كان قـد فـرّغ من الهواء فلمـاذا لم يفـرّغ البـاقون من النعوش مثله؟» وأكمل العم: «لست أدري» ثم عاد ليغوص في أعماق تفكيره مستذكراً ليلة العرس وما كـان فيـها، ففـاضت دمـوعه، مسـحـها بباطن كفه وأجفل، أعاد شمّ رائحة يده من جديد فلم يصدق، أدناها من أنف موسى الذي شمَّها بدوره وبدا عليه الارتباك، فأكملا سيرهما واجمين.

عندما رأت أم علي قطعة القميص وخصلة الشعر لم تنطق بكلمة، أخذتها ووضعتها في حجرها وبدأت تقلّبها بصمت، وحين رفعت رأسها بدا في عينيها

الجنون واليـأس مطبـقين، فلم يجـد العمّ مناصاً من التقدم اليها قبل أن تفقد الرشد، وأدنا يده أمام وجهها بهدوء وقال: «شمي»!

لم تفهم أم علي ما يريده العمّ فأعاد عليها القول: «شمي رائحة علي»، أخذت أم علي اليد تشمّها مرة ومرتين وثلاث، وما لبثت أن تبسَّمت وظهر في عينيها الزهوّ وهي تقول لمن حولها: «شموا رائحة الجنة».

أقـبل الجـمـيع يشم يد العمّ الممـدودة، وكـانت رائحتها «عنبر» ويعلم الله وحده من أين أتت!!!

١٩٩٦/١١/٣٠